...وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا... (٣)

محسن الأسدي.[١]

لعلّنا في هذه المقالة، نوفّق في دراسة آيات قرآنيّة، ذُكرت فيها مفردة النسك ومشتقاته، وبيان مدى علاقتها بالحجِّ والعمرة أحكاماً ومفاهيم وآداباً وتأريخاً..، بل تطلق في الأعم الأغلب على ما يتضمنه الحجُّ من شعائر وعبادات ومواقع، إن لم نقل قد اختصّت بها... وهو ما نريد الوقوف عنده في هذه المقالة بأكثر من حلقة إن شاء الله تعالى.

***

ما زلنا أمام دعاء مبارك لنبيين كريمين إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام، يُمهدان ويُبشران لبعثة نبيّ كريم خاتم للنبوات، يتوفّر على وظائف كبيرة، منها تعليم الناس مناسك الحجّ والعمرة، أي مناسك الحجّ الإبراهيمي، وينفي عنها ما قد يعلق بها من شوائب وانحرافات، وما يصيبها من نقص أو بدعة نتيجة تقادم القرون والأجيال، وتسلط المشركين والضالين والجهلاء والظلمة والمنتفعين.. فكانت أدعيتهما وكأنها تواكب تلك المناسك في مراحلها وأزمنتها وأجيالها، حرصاً على سلامتها وبقائها نقيةً أصيلةً كما رسمتها السماء، وتعبّد بها الصالحون من عباده سبحانه وتعالى..

---

١. محقّق وباحث ديني.

ومن ضمن ما توفّرت عليه أدعيتهما عليهما السلام؛ دعوة عامة أن يُصير هما ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾ وقد تمثّلت بالآية: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.[1]

وقد تحدثنا عنها في الحلقة الثانية من مقالة: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ العدد ٥٩ مجلة ميقات الحجّ.

فيما هناك دعوة خاصة تمثّلت بالآية ١٢٩ من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلعَزِيزُ ٱلحَكِيمُ﴾.

وهي محلُّ كلامنا في هذه المقالة؛ لنقف عندها إعراباً ولغةً وقراءةً ثمّ بياناً:

رَبَّنا: منادى مضاف محذوف منه حرف النداء، ولا بدَّ من تقدير قول محذوف، أي يقولان: ربنا، ويكثر حذف الحال إذا كان قولاً أغنى عنه القول. **وابْعَثْ**: عطف على ما تقدم. **فِيهِمْ**: متعلقان بابعث. **رَسُولًا**: مفعول به. **مِنْهُمْ**: صفة لرسولاً. **يَتْلُوا**: الجملة إما صفة ثانية وإما حال؛ لأنَّ رسولاً وصف بقوله منهم. **عليهم**: متعلقان بيتلو. **آياتِكَ**: مفعول يتلو. **وَيُعَلِّمُهُمُ**: عطف على يتلو والهاء مفعول به أول. **الكتاب**: مفعول به ثان. **والحكمة**: عطف على الكتاب. **وَيُزَكِّيهِمْ**: عطف على يعلمهم. **إنَّكَ أنت**: إنَّ واسمها. **أنت**: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ. **العزيزُ**: خبر أول. **الحكيمُ**: خبر ثان. والجملة الاسمية: خبر إنَّ. ولك أن تعرب الضمير ضمير فصل لا محل له من الإعراب. والعزيز الحكيم خبران لإنَّ.

وفي اللغة: ﴿وَٱبْعَثْ﴾ فللبعث معاني عديدة، نذكر مايعنينا منها، وهي بعثة الرسول صلى الله عليه وآله:

---

١. سورة البقرة: ١٢٨.

البعـث لغةً: بَعَـثَ، يبعثُ بَعثاً وبِعثـةً وبَعثةً، فهو باعث، والمفعـول: مَبعوث.. ويقال: بَعَثـهُ إليـه ولـه: أرسَـلَهُ.. بَعَثَـهُ يَبْعَثُهُ بَعْثًـا: أرْسَـلَهُ وَحْـدَهُ، وَبَعَـثَ بِهِ: أرْسَـلَهُ مَـعَ غَيْرِهِ. وَابْتَعَثَـهُ أيْضًـا أيْ أرْسَـلَهُ فَانْبَعَـثَ...، وابتَعَثَهُ: بَعَثَـهُ، وبَعَثَ بالكتاب ونحـوه... البَعثُ: الإرسـال، والرسـول قـد يكـون واحـداً أو جماعـةً. والجمـع: بُعـوث.. الـمَبْعُوث إليها مـن أهلهـا، وهو مـن باب تسـمية المفعـول بالمصـدر.. والمبعـوث: مَـنْ يُرْسَـل في مهمَّة، واحـدًا كان أو جماعـة.. وَالْبَعْـثُ فِي كَلَامِ الْعَـرَبِ عَلَى وَجْهَـيْنِ: أَحَدُهُمَا الْإِرْسَـالُ، كَقَوْلِهِ تَعَـالَى: ﴿**ثُـمَّ بَعَثْنَـا مِـنْ بَعْدِهِمْ مُـوسَىٰ وَهَـارُونَ إِلَىٰ فِرْعَـوْنَ وَمَلَئِـهِ بِآيَاتِنَا**﴾...مَعْنَاهُ أَرْسَـلْنَا... وَالْبَعْـثُ: الرَّسُـولُ.. وفي حديـث عـليّ عليه السلام يصـف النبـيَّ صلى الله عليه وآله: «شَـهِيدُك يـومَ الديـن، وبَعِيثُـك نعْمـة». أي مَبْعُوثـك الـذي بَعَثْتـه إلى الخَلْـق أي أرسـلته. فَعِيـلٌ بِمَعْنَى مَفْعُـولٍ... وَمِـنْ أَسْـمَائِهِ ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ: الْبَاعِـثُ، هُوَ الَّـذِي يَبْعَثُ الْخَلْـقَ أَيْ يُحْيِيهِـمْ بَعْدَ الْمَـوْتِ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ.. فالبعث فيه إرسـال، وفيه إنهـاض وتهييج، أي يتضمن قـوّةً وإثارةً، فهو أوسـع من الإرسـال.

﴿**قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ**﴾.[1]

فلو أرادوا الاكتفاء بمجرد الإرسـال؛ لقالوا: أرسـل، ولكنهم أرادوا أن يثيروا الناس في المدائن ويسـتنهضوهم ضدَّ موسـى ودعوته **ويؤلبوهم** عليه ؛ لهذا قالـوا لفرعون: ابعث!!

يقـول الراغـب في مفرداتـه: أصـل البَعْـث: إثـارة الشـيء وتوجيهـه، يقـال: بَعَثْتُـهُ فَانْبَعَـثَ، ويختلف البعث بحسـب اختلاف مـا علّق به... ﴿**ولقد بعثنـا فى كلّ أُمّة رسولاً**﴾ ونحو:﴿**أرسلنا رسلنا**﴾...

والبعـث اصطلاحـاً: إرسـال الرسـول أو الجماعة بمهمـة خاصـة.. وفي التنزيل العزيز عـدّة آيـات منها: ﴿**رَبَّنَـا وَابْعَـثْ فِيهِمْ رَسُـولاً مِّنْهُمْ**﴾.[2]

١. سورة الشعراء : ٣٦.

٢. سورة البقرة : ١٢٩ .

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾. آل عمران : ١٦٤ .

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللهُ رَسُولاً﴾.[١] ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِي ٱلأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.[٢]

وانظر أيضاً الآيات: البقرة: ٢١٣. الأعراف: ١٠٣. يونس: ٧٤، ٧٥. النحل:٣٦.

وأما قراءةً، فهي في قراءة أبيّ بن كعب: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِي آخِرِهِم رَسُولاً مِنْهُم.[٣]

وأما بياناً، فهي أي ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾. غدت تشكّل فقرةً عظيمةً من الدعاء المبارك لخليل الله إبراهيم وابنه نبيّ الله إسماعيل عليهما السلام، فهما لم يتوقفا عند الدعاء لنفسيهما بالإسلام ولذريتهما بالأمّة المسلمة في دعائهما العام، دون أن يكملا دعوتهما العامة بدعائهما الخاص بأن يكون هناك في الآتي من الزمان؛ في مستقبل تلك الذرية ﴿ذُرِّيَّتِنَآ﴾. أو في تلك الأمّة ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾. مبعوثٌ «فِيهِمْ .. مِّنْهُمْ».

فهما وإن دعوا لنفسيهما بأن يكونا ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾. أن يجعلهما ثابتين دائمين على الإذعان والخضوع له سبحانه فقط، والطاعة له فقط لا لغيره، أي مخلصين لك أوجههنا، من قوله:﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ﴾.[٤]

١. سورة الفرقان : ٤١ .

٢. سورة الجمعة : ٢.

٣. إعراب القرآن الكريم وبيانه. محيي الدين آلدرويش، انظر معاجم اللغة، منها لسان العرب؛ مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبي بكر الرازي: ٢٣. المعجم الوسيط، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى و..:٦٢؛ تفسير البحر المحيط، أبو حيان؛ مفردات الراغب: الآية؛ القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً، سعدي أبوجيب: ٣٩.

٤. سورة البقرة : ١١٢.

وأسلم له من معانيه: أخلص له، ومنه قوله تعالى: ...﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ...﴾.[1] أي خالصاً، قال زيد بن عمرو بن نفيل:

أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالاَ
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عذْباً زُلاَلاَ

مستسلمين: يقال: أسلم له وسلم واستسلم، إذا خضع وأذعن. والمعنى زدنا إخلاصاً أو إذعاناً لك. موحدين مخلصين لك، حصراً لك فقط دون غيرك، قائمين بجميع شرائع الإسلام مطيعين لك؛ لأنَّ الإسلام هو الطاعة والانقياد والخضوع لله عزَّ وجلَّ، والإقبال على الالتزام بأوامره ونواهيه.. و لا يكون ذلك كلّه إلّا لك وحدك لا شريك ولا عديل لك، وبالتالي لا نعبد إلّا إياك ولا ندعو ربًّا سواك!

ومن إسلامهما هذا الذي هو على الحقيقة، والذي خصّا نفسيهما به أولاً؛ انطلقا في دعائهما للأُمّة؛ **أن تكون هناك أُمّةٌ، لا فقط أُمّة، بل أُمّة مسلمة، تنبثق من تلك الذرية المباركة، ذرية إبراهيم وإسماعيل بالذات**؛ ليكون إسلام الذرية وإسلام الأمّة من إسلامهما أو كإسلامهما بلا فرق، وهو الإسلام الخالص الصريح الحقيقي المتمثّل بقولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾. فليس الإسلام الذي سألاه عليهما السلام إلّا حقيقة الإسلام - كما يصفه العلّامة الطباطبائي - وفي قوله تعالى: ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. إشارة إلى ذلك، فلو كان المراد مجرد صدق اسم الإسلام على الذرية؛ لقيل: أمّة مسلمة، وحذف قوله: لك. وأن تُحقِّقَ استجابة هذا الدعاء ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. حصراً لك دون غيرك، مخلصةً وجهها إليه تعالى، مذعنةً لأوامره ونواهيه؛ ليستمر هذا الإسلام بهم جميعاً بقوّة الأمّة وإرادتها الثابتة المنفعلة بإسلامها الحقيقي! كما أنّهما عليهما السلام لم يقفا عند الدعاء لذاتيهما، كما لم يقف إبراهيم عليه السلام من قبلُ عند الدعاء لمكة بلداً وأهلاً؛ مرّةً بالأمن وتجنّب عبادة الأصنام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًاوَاجْنُبْنِي

---

١. سورة الزمر: ٢٩.

﴿بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.[1]

وأُخرى بالأمن والرزق: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.[2]

دون أن يواصلا دعاءهما لها ولأجيالها القادمة بالهداية والإسلام؛ أن تنال هذه الذرية نعمة الإسلام، فهي نعمة عظيمة ما كان لإبراهيم ولا إسماعيل إلّا أن يتمنّاها لذريتهما؛ لبعض منها أن يحظى بهذه النعمة الطيبة. فقالا: ...﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ...﴾. وأردفا دعاءهما هذا بـ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

بكلّ ما تحمله كلمة النسك من معاني العبادة في أعلى درجاتها حتى عُدّ النسك غاية العبادة، وإن شاع في فريضة الحجّ والعمرة؛ لما فيهما من جهدٍ ومشقّةٍ وكلفةٍ وبعدٍ عن الأهل والعمل والعادة والمألوف.. وختماه برجاء التوبة: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. والتوبة لطاما ينشدها التائبون المخلَصون، والعائدون دائماً بصدق إلى الله وحده! رفعاً لدرجاتهم، ورقيّاً في مقاماتهم..!

ونضيف على ما ذُكر عن التوبة في الحلقة السابقة ما قاله ابن عطية: واختلف في معنى طلبهم التوبة وهم أنبياء معصومون، فقالت طائفة: طلبا التثبيت والدوام، وقيل: أرادا من بعدهما من الذرية كما تقول: برني فلان وأكرمني، وأنت تريد في ولدك وذريتك، وقيل وهو الأحسن عندي: إنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت وأطاعا، أرادا أن يسنّا للناس أنَّ ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة.

وقال الطبري: إنه ليس أحد من خلق الله تعالى إلا وبينه وبين الله تعالى معانٍ يحب

١. سورة إبراهيم: ٣٥.
٢. سورة البقرة: ١٢٦.

أن تكـون أحسـن ممـا هي. وبعـد كلامه هـذا، أردف ابن عطيـة قائلاً: وأجمعـت الأمة على عصمـة الأنبيـاء في معنـى التبليغ ومـن الكبائر ومـن الصغائر التـي فيها رذيلـة، واختلف في غـير ذلـك مـن الصغائـر، والـذي أقول بـه: إنهـم معصومـون مـن الجميـع، وإنَّ قول النبـيّ ﷺ: «**إني لأتـوب إلى الله في اليوم وأسـتغفره سـبعين مرةً**».

إنـما هـو رجوعـه من حالـة إلى أرفـع منهـا؛ لتزيد علومـه واطلاعـه على أمـر الله، فهو يتـوب مـن المنزلـة الأولى إلى الأخـرى، والتوبة هنـا لغوية.[1]

إنَّ كلَّ هـذا الـذي جـاء منهـما عليهما السلام في دعائهـما العـام؛ لم يقفـا عنـده، بـل كأنَّهـما ـ والله أعلـم ـ جعـلاه مقدمـةً؛ ليصـلا إلى دعائهما الخـاص؛ لمبعوث تُنـاط به مهام ومسـؤوليات كبـيرة..، وقـد تمثّل هـذا الدعاء **بالآيـة المباركة محـلّ كلامنا**: ﴿**رَبَّنَـا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُـولاً مِّنْهُـمْ يَتْلُـواْ عَلَيْهِمْ آياتِـكَ وَيُعَلِّمُهُـمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَـةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّـكَ أَنتَ ٱلعَزِيزُ ٱلحَكِيمُ**﴾.[2]

لقـد جـاءت هـذه الآيـة وهـي الثانيـة في المقطـع المذكـور، تحكـي لنـا الدعـاء المبارك لإبراهيـم وإسماعيـل عليهما السلام، وقد بـدءا دعاءهما بـ﴿**رَبَّنَا**﴾ الخالي مـن أداة البعد، وهو دعاء المقرّبـين عـلى مـا يذكره بعـض أهل التفسـير..

والنـداء في قولـه: ﴿**ربنـا وابعث**﴾. يقـول ابـن عاشـور عنـه: كـرر النـداء؛ لأنه عطف غـرض آخـر في هـذا الدعاء، وهـو غرض الدعـاء بمجيء الرسـالة في ذريته؛ لتشـريفهم وحرصـاً على تمـام هديهم..

فالنـداء في قولـه: ﴿**ربنـا وابعـث**﴾. اعـتراض بين جمـل الدعـوات المتعاطفـة، ومظهر هـذه الدعـوة هو محمـد ﷺ؛ فإنه الرسـول الذي هـو من ذريـة إبراهيم وإسـماعيل كليهما، وأمـا غـيره مـن رسـل غـير العـرب، فليسـوا مـن ذريـة إسـماعيل، وشـعيب مـن ذريـة

١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ)، الآية: ١٢٨ سورة البقرة.
٢. سورة البقرة: ١٢٩.

إبراهيم، وليس من ذرية إسماعيل، وهود وصالح هما من العرب العاربة، فليسا من ذرية إبراهيم ولا من ذرية إسماعيل.

يقول سيد قطب:.. إنَّ إبراهيم وإسماعيل اللذين عهد الله إليهما برفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والمصلين، وهما أصل سادني البيت من قريش.. إنهما يقولان باللسان الصريح: ﴿**رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾. ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ**﴾. كما يقولان باللسان نفسه: ﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**...﴾. وهما بهذا وذاك يقرران وراثة الأمّة المسلمة لإمامة إبراهيم، ووراثتها للبيت الحرام سواء، وإذن فهو بيتها الذي تتّجه إليه، وهي أولى به من المشركين، وهو أولى بها من قبلة اليهود والمسيحين!...[1]

تخصيص الدعاء: فكما جاء دعاؤه متمنيّاً الإمامة لذريته: ﴿**وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ**...﴾.[2]

فأجابته السماء بقولها: ﴿**لاَ يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ**﴾. فأبعدت الظالمين عن دائرة الإمامة، وأنَّ عهدها المبارك لا ينال الظالمين، وبالتالي فلا هو يصلهم ويدركهم، ولا هم جديرون به. وخصّت الإمامة وعهدها وقيدتها بمن لم يرتكب ظلماً من الذرية الإبراهيمية!

كذلك دعاؤه بالأمن والرزق: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ** ...﴾.[3]

ولعلَّ هذا الدعاء ـ والله أعلم ـ هو الأسبق، ولكن ما يُستفاد من كلام بعضهم

---

١. الميزان في تفسير القرآن للسيد العلامة الطباطبائي؛ التحرير والتنوير لابن عاشور؛ في ظلال القرآن لسيد قطب: الآية.

٢. سورة البقرة: ١٢٤.

٣. سورة البقرة: ١٢٦.

حـول هـذا الجزء مـن الآية أنَّ دعـاءه بالإمامة أسـبق: قد خصَّ أيضـاً بـ﴿**مَنْ آمَـنَ مِنْهُمْ بِـاللهِ وَٱلْيَـوْمِ ٱلآخِـرِ**﴾. يعنـي وارزق المؤمنين مـن أهله خاصـة.. وأما عن الجـزء الأخير مـن قولـه تعالى:..﴿**قَـالَ وَمَن كَـفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيـلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَـذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَـصِيرُ**﴾.[1]

فـإنَّ ابـن عبـاس يقـول: كان إبراهيـم يحجرها عـلى المؤمنـين دون الناس، فأنـزل الله: ﴿**ومـن كفـر**﴾. أيضـاً أرزقهـم كـما أرزق المؤمنـين، أأخلـق خلقـاً لا أرزقهـم؟ أمتعهم قليـلاً، ثـم أضطرهـم إلى عـذاب النـار وبئـس المصـير، ثـم قـرأ ابـن عبـاس: ﴿**كُلاًّ نُّمِـدُّ هَـٰٓؤُلاءِ وَهَـٰٓؤُلاءِ مِـنْ عَطَـآءِ رَبِّكَ وَمَـا كَانَ عَطَـآءُ رَبِّكَ مَحْظُـوراً**﴾.[2]

الطبري: وهذه مسـألة من إبراهيـم ربّه أن يرزق مؤمنـي أهل مكة من الثمرات دون كافريهم. وخصّ بـمسألة ذلك للـمؤمنـين دون الكافرين؛ لـما أعلـمه الله عند مسألته إيـاه أن يجعـل مـن ذرّيته أئمة يقتـدي بهم أن منهـم الكافر الـذي لا ينال عهده، والظالـم الذي لا يدرك ولايته. فلـما أن علـم أن من ذرّيته الظالـم والكافر، خصّ بـمسألته ربّه أن يـرزق من الثمرات من سـكان مكة الـمؤمن منهـم دون الكافر، وقال الله له: إنـي قد أجبـت دعاءك، وسـأرزق مع مؤمنـي أهل هذا البلـد كافرهم، فأمتعه به قلـيلاً.

الطـبرسي: وإنما خـصّ بذلك من آمن بـالله؛ لأنَّ الله تعالى قد أعلمه أنـه يكون في ذريته الظالمون في جواب مسألته إياه لذريته الإمامة بقولـه: ﴿**لا ينال عهدى الظالمين**﴾.

فخـصّ بالدعـاء في الـرزق المؤمنـين تأدبـاً بأدب الله تعـالى، وقيـل: إنه عليه السلام ظـنّ أنه إذا دعـا للكفـار بالـرزق أنهـم يكثـرون بمكة ويفسـدون، فربـما يصـدون الناس عـن الحجّ، فخـصَّ بالدعـاء أهـل الإيمان.

أما غيرهم، فيقول الشيخ الطوسي في تفسيره: وقولـه: ﴿**قال ومن كفر فأمتعه قليلاً**﴾.

---

١. سورة البقرة: ١٢٦.

٢. سورة الإسراء: ٢٠.

أي قال الله سبحانه: قد استجبت دعوتك فيمن آمن منهم، ومن كفر فأمتعه بالرزق الذي أرزقه إلى وقت مماته وقيل: فأمتعه بالبقاء في الدنيا، وقيل: أمتعه بالأمن والرزق إلى خروج محمدﷺ، فيقتله إن أقام على كفره، أو يجليه عن مكة عن الحسن.

﴿**ثم اضطره إلى عذاب النار**﴾. أي أدفعه إلى النار وأسوقه إليها في الآخرة ﴿**وبئس المصير**﴾. أي المرجع والمأوى والمال.

ويقول أبو حيان:.. ولما سمع في الإمامة قوله تعالى: ﴿**لا ينال عهدى الظالمين**﴾.. قيد هنا من سأل له الرزق فقال: ﴿**من آمن منهم بالله واليوم الآخر**﴾. والضمير في منهم عائد على أهله. دعا لمؤمنهم بالأمن والخصب؛ لأنَّ الكافر لا يدعى له بذلك. ألا ترى أنَّ قريشاً لما طغت، دعا عليها رسول اللهﷺ:«...**اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين، كسني يوسف**»، وكانت مكة إذ ذاك قفراً، لا ماء بها ولا نبات، كما قال: ﴿**بواد غير ذى زرع**﴾. فبارك الله فيما حولها، كالطائف وغيره، وأنبت الله فيه أنواعاً من الثمر.

وروي: أنَّ الله تعالى لما دعاه إبراهيم، أمر جبريل فاقتلع فلسطين، وقيل: بقعة من الأردن، فطاف بها حول البيت سبعاً، فأنزلها بِوَاد، فسميت الطائف بسبب ذلك الطواف.

وقال بعضهم:

كلّ الأماكن إعظاماً لحرمتها تسعى لها ولها في سعيها شرف!

ابن عاشور: وقوله ﴿**مَن آمن منهم بالله**﴾. بدل بعضٍ من قوله ﴿**أهله**﴾.يفيد تخصيصه؛ لأنَّ أهله عام إذ هو اسم جمع مضاف وبَدل البعض مخصص وخَصَّ إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على شيُوع الإيمان لساكِنيه؛ لأنهم إذا علموا أنَّ دعوة إبراهيم خصّت المؤمنين، تجنبوا ما يحيد بهم عن الإيمان، فجَعل تيسير الرزق لهم على شرط إيمانهم باعثاً لهم على الإيمان، أو أراد التأدب مع الله تعالى فسأله سؤالاً

أقرب إلى الإجابة، ولعله استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال: ﴿**ومن ذريتي**﴾. فقال: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾.[1] أنَّ غير المؤمنين ليسوا أهلاً لإجراء رزق الله عليهم، وقد أعقب الله دعوته بقوله: ﴿**ومن كفر...**﴾.

أما سيد قطب، وهو يواصل كلامه عن تلك الوراثة، وقبل أن يشير إلى التخصيص المذكور ببعض الذرية، فيقول: وإذن فمن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارى، ويدعي دعاواه العريضة في الهدى والجنة بسبب تلك الوراثة، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش، فليسمع: أنَّ إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيه والإمامة، قال له ربّه: ﴿**قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾. ﴿**مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ**﴾. ولما أن دعا هو لأهل البلد بالرزق والبركة خصّ بدعوته وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربّهما في بناء البيت وتطهيره كانت دعوتهما: أن يكونا مسلمين لله، وأن يجعل الله من ذريتهما أمّة مسلمة، وأن يبعث في أهل بيته رسولاً منهم..[2] **وهذا التخصيص كانا يتمنياه ويهدفان إليه** أن يبعث في ﴿**مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ**﴾. والتي سيكون وجودها بعد قرون وأجيال في مكة المكرمة وما حولها، مَن يواصل مسيرتهما تلك، يُثبت وجودها، يرفع عنها ما قد يُصيبها من تحريف واعتداء وتضييع، ويُعلم الأُمّة دينها وشرائعه، والتي منها المناسك العبادية لبيته العتيق، الذي هم بقربه وحوله وهو بينهم؛ ليحجّوه على علم ومعرفة.

فكان رسول الله ﷺ الذي لم يُبعث سواه في مكة المكرمة، استجابةً لدعائهما! بُعث ﷺ ليواصل ما بدأ به كلٌّ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من تشييد البيت الحرام وتطهيره، فإعلان مناسك حجّه، فالأذان بالحجّ... وحتى تعرف هذه الأمّة معالم

١. سورة البقرة: ١٢٤.

٢. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)؛ جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠ هـ)؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)؛ تفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ)؛ التحرير والتنوير لابن عاشور؛ في ظلال القرآن لسيد قطب.

دينهـا، فيقـرر لهـم مـا ينفعهـم من تعاليـم الكتـاب، ومن نظـمٍ عمليـة وأخلاقيـة، وكذا نظـم الشـعائر الدينية، والتي منها المناسـك العبادية لبيته العتيق وأحكامـه، بل وكلٌّ منها يشـكّل أهمَّ عنـاصر السـاحة المؤمنـة المنتظَـرَة ومقوماتها!

إذن فإبراهيـم عليه السلام لم يقـف عنـد الدعـاء لهذه الذريـة أن يرزقهـا الله تعالى مـن الثمرات دون أن يواصـل هـو وابنـه إسـماعيل دعاءهمـا لهـا ولأجيالهـا القادمـة بالهدايـة والمعرفـة والعلـم والـزكاة.. ففيهـا حياتهـم الطيبـة في الدنيـا وفي الآخرة، وهـو هدف بعثـة الأنبياء والرسـل بكتبهـم ومواقفهـم وتضحياتهـم الجليلـة العظيمـة، إذا اسـتجابت تلـك الأمم وتلـك الأجيـال لهم ولرسـالة السـماء التي حملوها وأمـروا بتبليغهـا: ﴿ياأَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُواْ اسْـتَجِيبُواْ لِلهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾.[1] بمعنـى أن لا تترك هذه الذرية وهـذه الأُمّـة المسـلمة بعيـداً عـمّا يجدد لهـا حياتها، بـل يُحييها عـبر عقيدة وشريعـة تُنجيها مـن كلّ وهـم وجهـل وانحـراف ومـن العبوديـة لغـيره تعـالى.. وبـلا أن تتواصـل هـذه النعـم المباركـة، التي هـي مقوماتها الحياتيـة الصحيحة لهـا ولأجيالها المتعاقبـة، وأن يريهم مناسـكهم وعباداتهم.

وفعـلاً رأت هـذه الذريـة وهـذه الأمّة ذلك كلَّـه ورأت مناسـكها؛ سـواء أكانت هذه الرؤيـا رؤيـةً بصريـةً أم رؤيـةً قلبيـةً أو همـا معـاً، أو هـي بمعنـى علّمنـا.. مناسـكها جمع منسـك: المصـدر، جمـع لاختلافهـا، ولعلّهـا معـالم ومواقـف وأعـمال حجّهـا وعمرتهـا؛ الكعبـة والمسـعى؛ الطواف والصـلاة، وعرفة والمزدلفـة ومنى وأحكامها الشـرعية، وإن قيـل: كلّ عبـادة يتعبـد بها الله تعـالى...[2]

الاسـتعانة: وبـما أنَّ ظاهـر الآيـة، الـذي يحكي دعـاء إبراهيـم وإسـماعيل عليهما السلام، لم يُشر صراحـةً لا إلى ذكـر اسـم الأُمّـة، ولا اسـم الرسـول المبعوث فيهـا، بمعنـى لم يبين ذلك،

---

١. سورة الأنفال: ٢٤.

٢. انظر مقالتنا الأولى (وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا). في العدد ٥٨ من هذه المجلة.

واكتفى التنزيل العزيز بقوله: ...﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾. فقد استعانوا لإيضاح ذلك بالآية ١٦٤ من سوره آل عمران: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾.

فالامتنان: يُعدُّ من أكبر النعم وأعظمها! أن امتنَّ سبحانه وتعالى على أهل مكة ومن حولها والناس أجمع برسول كريم، معروف نسبه لهم، فهو منهم من قبيلتهم من قومهم من بلدهم وبيئتهم، أدركوا صدقه، وخبروا أمانته، واعتادوا أدبه وخُلقه.. يعرفونه رؤوفاً بهم مشفقًا حريصاً عليهم، ناصحًا لهم... كلُّ هدفه وكلُّ همّه أن يهديهم للإيمان بالله تعالى، وأن يُرغبهم فيه، ويحذرهم من خلافه، فيتمّ إنقاذهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وبالتالي يُبعدهم ويمنعهم من الهلكة، حتى يصل بهم إلى الخير والبركة في الدنيا، وجنّة عرضها السماوات والأرض في الآخرة...!

لنقف قليلاً عند ﴿**مَنَّ**﴾. في الآية المذكورة:

لغةً: أبو حيان: ومعنى مَنَّ: تطوّل وتفضل.

الراغب:.. والمنة: النعمة الثقيلة ويقال ذلك على وجهين: أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيقال من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة وعلى ذلك قوله: ﴿**لقد مَنَّ الله على المؤمنين ـ كذلك كنتم من قبل فمَنَّ الله عليكم ـ ولقد منّا على موسى وهارون ـ يمنُّ على من يشاء ـ ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا**﴾. وذلك على الحقيقة لا يكون إلا لله تعالى. والثاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس إلّا عند كفران النعمة، ولقبح ذلك قيل: المنة تهدم الصنيعة، ولحسن ذكرها عند الكفران قيل: إذا كفرت النعمة حسنت المنة.

وقوله: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ ٱللهُ يَمُنُّ**

﴿عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.[1]

فالمنّة منهم بالقول، ومنّة الله عليهم بالفعل، وهو هدايته إياهم كما ذكر...[2]

وعند: ﴿أَنْفُسِهِمْ﴾.

قراءةً: وإن ذكروا أنَّه قرأ كلٌّ من الضحاك وأبي الجوزاء: ﴿**من أنفسهم**﴾. بفتح الفاء. لكن بعضهم ذكرها كقراءة شاذة، حيث قال: وقرِيء في الشّواذ «من أَنْفَسِهِم» بفتح الفاء يعني من أشرفهم؛ لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضلُ من قريش، وقريشٌ أفضل من العرب، والعربُ أفضل من غيرهم.

وأيضاً قرأت عائشة وفاطمة والضحاك، ورواها أنس عنه صلى الله عليه وآله بفتح الفاء من النَّفاسة، وهي الشرف أي: أشرفِهم نسباً وخَلْقاً وخُلُقاً. وعن عليٍّ عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله: «أنا أَنْفَسُكم نَسَباً وحَسَباً وصِهْراً»!

الزمخشري: وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وقراءة فاطمة عليها السلام من «أَنْفَسِهِم»، أي من أشرفهم؛ لأنَّ عدنان ذروة ولد إسماعيل، ومضر ذروة نزار بن معد بن عدنان، وخندف ذروة مضر، ومدركة ذروة خندف، وقريش ذروة مدركة، وذروة قريش محمد صلى الله عليه وآله.

وفيما خطب به أبو طالب عليه السلام في تزويج خديجة عليها السلام ـ وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضىء معدّ، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمنا، وجعلنا الحكام على الناس. ثمَّ إنَّ ابن أخي هذا محمد بن عبد الله مَن لا يوزن به فتى من قريش إلّا رجح به، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل! ومع هذا بقيت قراءتُها، وهي قراءة الجمهور: ﴿**مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾. بضمّ الفاء أي: مِنْ

---

١. سورة الحجرات: ١٧.

٢. تفسير البحر المحيط، ابوحيان (ت٧٥٤هـ)؛ مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٤٧٤.

جملتهم وجنسهم. هي القراءة المشهورة والمعمول بها.[1]

وأما بياناً فيقول الشيخ الطبرسي: وموضع المنة فيه أنه بعث فيهم من عرفوا أمره وخبَّروا شأنه. وقبل قوله هذا، قال عن قوله تعالى: ﴿**لقد منَّ الله**﴾. أي أنعم الله ﴿**على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً**﴾. منهم خصَّ المؤمنين بالذكر، وإن كان ﷺ مبعوثاً إلى جميع الخلق؛ لأنَّ النعمة عليهم أعظم لاهتدائهم به وانتفاعهم ببيانه.

الطبري: يعني بذلك: لقد تطوّل الله على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً، حين أرسل فيهم رسولاً من أنفسهم، نبياً من أهل لسانهم، ولم يجعله من غير أهل لسانهم، فلا يفقهوا عنه ما يقول.

الزمخشري: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾. على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه. وخصّ المؤمنين منهم؛ لأنهم هم المنتفعون بمبعثه ﴿**مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾. من جنسهم عربياً مثلهم. وقيل: من ولد إسماعيل كما أنه من ولده، فإن قلت مما وجه المنة عليهم في أن كان من أنفسهم؟ قلت: إذا كان منهم كان اللسان واحداً، فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه، وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به، وفي كونه من أنفسهم شرف لهم، كقوله: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ**﴾.[2]

وأيضاً الشيخ الطبرسي: وقوله: ﴿**من أنفسهم**﴾. فيه أقوال: أحدها: أنَّ المراد به من رهطهم يعرفون منشأه وصدقه وأمانته، وكونه أميّاً لم يكتب كتاباً ولم يقرأه؛ ليعلموا أنَّ ما أتى به وحي منزل، ويكون ذلك شرفاً لهم وداعياً إياهم إلى الإيمان. وثانيها: أنَّ المراد به أنه يتكلم بلسانهم، فيسهل عليهم تعلم الحكمة منه فيكون خاصاً بالعرب.

---

١. انظر تفسير الدر المصون، السمين الحلبي (ت ٧٥٦ هـ)؛ تفسير الكشاف، الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)؛ معجم القراءات، تأليف د. عبد اللطيف الخطيب ١ :٦١٥؛ سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

٢. سورة الزخرف: ٤٤.

وثالثها: أنه عام لجميع المؤمنين، والمراد بأنفسهم أنه من جنسهم، لم يبعث ملكاً ولا جنياً... وبكون المبعوث هو ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾. يذكر ابن الجوزي أربعة أقوال:

أحدها: لكونه معروف النسب فيهم، قاله ابن عباس، وقتادة.

والثاني: لكونهم قد خبروا أمره، وعلموا صدقه، قاله الزجاج.

والثالث: ليسهل عليهم التعلم منه؛ لموافقة لسانه للسانهم، قاله أبو سليمان الدمشقي.

والرابع: لأنَّ شرفهم يتمُّ بظهور نبيٍّ منهم، قاله الماوردي.

ثمّ يجيب عن سؤال يضعه: وهل هذه الآية خاصة أم عامة؟ فيه قولان: أحدهما: أنها خاصة للعرب، روي عن عايشة والجمهور... والثانى: أنها عامة لسائر المؤمنين، فيكون المعنى أنه ليس بملكٍ، ولا من غير بني آدم، وهذا اختيار الزجاج..

ومن ضمن ما يتحدث به سيد قطب عن المن في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. الوارد في الآية: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ...﴾. وصفه بـ: ...إنها المنة العظمى أن يبعث الله فيهم رسولاً، وأن يكون هذا الرسول «من أنفسهم» .. إنَّ العناية من الله الجليل، بإرسال رسول من عنده إلى بعض خلقه، هي المنة التي لاتنبثق إلّا من فيض الكرم الإلهي. المنة الخالصة التي لا يقابلها شيء من جانب البشر. وتتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول «من أنفسهم».. لم يقل «منهم» فإنّ للتعبير القرآني «من أنفسهم» ظلالاً عميقة الايحاء والدلالة..[1]

علاقة بين آيتين: هذا ومن ضمن ما توفّر عليه هذا الدعاء ـ والله أعلم ـ أنَّه جاء؛ ليؤكّد واقعاً تاريخياً يذكر إبراهيم فيه ذريته والأمة المسلمة ببعثة رسول: «فيهم .. ومنهم» أي لا يكون فقط يبعث ﴿فِيهِمْ﴾؛ لأنه قد يكون من غيرهم، أي أنَّ البعث

١. مجمع البيان للطبرسي؛ تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت٣١٠هـ)، تفسير الكشاف، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، وأيضاً مجمع البيان للطبرسي، تفسير زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، في ظلال القرآن لسيد قطب.

فيهم لا يستلزم البعث منهم؛ ولهذا لم يكتفِ في دعائه عليه السلام، إلّا أن يقول: ﴿**مِنْهُمْ**﴾. من أنفسهم لا من غيرهم. توكيداً وتذكيراً لهم بنعمته وفضله تعالى عليهم .. فهو فضل إلهيٌّ ما أعظمه، ومنَّةٌ ربانيّة ما أجلَّها!

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في معنى هذا الفضل الإلهي: «**فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حيث بعث إليهم رسولاً، فعقد بملّته طاعتهم، وجمع على دعوته ألفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، و أسالت لهم جداول نعيمها، والتفت الملّة بهم في عوائد بركتها، فأصبحوا في نعمتها غرقين، وفي خضرة عيشها فكهين...**»![1]

وهذا التذكير المرفق بمنّته تعالى عليكم لم يتوقف عند هذه الآية فقط، فهو موجود بعد المقطع القرآني الكريم عن القبلة، في الآية ١٥١ من سورة البقرة: ﴿**كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ**﴾. فبعد الحديث عن القبلة ونعمها على الأُمّة المسلمة، ابتدأت هذه الآية بكاف التشبيه كأنَّه يقول ـ والله العالم ـ: إنَّ إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة، ليس ذلك ببدع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه، وأمانته وكماله ونصحه...[2] فيبدو ـ والله العالم ـ أنَّ هناك ارتباطاً أو نوع علاقة بين قوليه تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ...**﴾.[3] و﴿**كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ**﴾.[4]

---

١. نهج البلاغة، الخطبة، ١٩٢ : ٣٧٣.

٢. تفسير السعدي، الآية: ١٥١ البقرة.

٣. ١٢٩ من سورة البقرة.

٤. ١٥١ من سورة البقرة.

أبوحيان: ﴿**كما أرسلنا فيكم**﴾ الكاف هنا للتشبيه، وهي في موضع نصب على أنها نعت لمصدر محذوف...

آل درويش: الكاف: حرف جرّ وتشبيه. ما: مصدريّة. أرسلنا: فعل ماض مبنيّ على السكون. نا: فاعل. والمصدر المؤوّل ما أرسلنا: في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله أتمّ. أي: أتمّ نعمتي إتماماً كإرسالنا فيكم رسولاً منكم. في: حرف جرّ. كم: ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ﴿**أرسلنا**﴾. رسولاً: مفعول به منصوب. منكم: مثل فيكم متعلّق بمحذوف نعت لـ(رسولاً).

الطبري: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً**﴾. ولأتمّ نعمتي عليكم ببيان شرائع ملتكم الحنيفية، وأهديكم لدين خليلي إبراهيم عليه السلام، وأجعل لكم دعوته التي دعاني بها ومسألته التي سألنيها فقال: ﴿**رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ**﴾.[1] كما جعلت لكم دعوته التي دعاني بها ومسألته التي سألنيها، فقال: ﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**﴾.[2] فابتعثت منكم رسولي الذي سألني إبراهيم خليلي وابنه إسماعيل أن أبعثه من ذرّيتهما.

فيما الرازي وهو يتحدث عن الكاف ﴿كَمَا﴾. في قوله تعالى: ﴿**كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً...**﴾. يقول: هذا الكاف إما أن يتعلق بما قبله، أو بما بعده، فإن قلنا: إنه متعلق بما قبله، ففيه وجوه: الأول: ... الثاني: أنَّ إبراهيم عليه السلام قال: ﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾. ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا**﴾. وقال أيضاً: فكأنه تعالى قال: ولأتم نعمتي عليكم ببيان الشرائع،

١. سورة البقرة: ١٢٨.
٢. سورة البقرة: ١٢٩.

وأهديكم إلى الدين إجابةً لدعوة إبراهيم، كما أرسلنا فيكم رسولاً إجابةً لدعوته.. وأما عن ﴿**فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾. فيقول: وفي إرساله «فيهم ومنهم»، نعم عظيمة عليهم؛ لما لهم فيه الشرف، ولأنَّ المشهور من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير، فبعثه الله تعالى من واسطتهم؛ ليكونوا إلى القبول أقرب.

أبو حيان: واختلف في تقديره، فقيل التقدير: ولأتم نعمتي عليكم إتماماً مثل إتمام إرسال الرسول فيكم. ومتعلق الإتمامين مختلف:.. أو الإتمام الأول بإجابة الدعوة الأولى لإبراهيم في قوله: ﴿**من ذريتنا أمّة مسلمة لك**﴾. والإتمام الثاني بإجابة الدعوة الثانية في قوله﴿**...ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم**﴾. ونأخذ شيئاً مختصراً من كلام مفصل ونافع لابن عاشور في هذه الآية ١٥١ البقرة، ولكن بعد أن يُبيّن علاقة التشبيه بحرف الكاف من ﴿**كَمَا**﴾. بالجزء الأخير من الآية التي سبقتها أي ١٥٠ البقرة:..﴿**وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾. بالعلتين: ﴿**وَلأُتِمَّ**﴾. ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾. أي ذلك من نعمتي عليكم كنعمة إرسال محمدﷺ، وجعل الإرسال مشبهاً به؛ لأنه أسبق وأظهر تحقيقاً للمشبه،... فالخطاب في قوله: «فيكم» وما بعده للمؤمنين من المهاجرين والأنصار تذكيراً لهم بنعمة الله عليهم؛ بأن بعث إليهم رسولاً بين ظهرانيهم ومن قومهم؛ لأنَّ ذلك أقوى تيسيراً لهدايتهم، وهذا على نحو دعوة إبراهيم: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم**﴾.[1] وقد امتن الله على عموم المؤمنين من العرب وغيرهم بقوله: ﴿**لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم**﴾.[2] أي جنسهم الإنساني؛ لأنَّ ذلك آنس لهم مما لو كان رسولهم من الملائكة قال تعالى: ﴿**ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً**﴾.[3] ولذلك علق بفعل ﴿**أرسلنا**﴾. حرفُ فِي ولم يعلَّق به حرف إلى

١. سورة البقرة: ١٢٩.

٢. سورة آل عمران: ١٦٤.

٣. سورة الأنعام: ٩.

كما في قوله: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم﴾.[1] لأنَّ ذلك مقام احتجاج وهذا مقام امتنان، فناسب أن يذكر ما به تمام المنة وهي أن جعل رسولهم فيهم ومنهم، أي هو موجود في قومهم...

وهذا سيد قطب في حديثه عن آيات القبلة في مقطع قرآني كريم من سورة البقرة ١٤٢،١٥٢ يقول:.. فإنَّ لهذا الدعاء دلالته ووزنه فيما كان يشجر بين اليهود والجماعة المسلمة من نزاع عنيف متعدد الأطراف، وإذن فهو بيتها الذي تتجه إليه، وهي أولى به من المشركين. وهو أولى بها من قبلة اليهود والمسيحيين! ويقول أيضاً:.. نرى السياق يستطرد في تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم، بإرسال هذا النبيّ منهم إليهم، استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم، سادن المسجد الحرام قبلة المسلمين ويربطهم ـ سبحانه ـ به مباشرة في نهاية الحديث: ﴿كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾[2].

والذي يلفت النظر هنا، أن الآية تعيد بالنصّ دعوة إبراهيم التي سبقت في السورة، وهو يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل. دعوته أن يبعث الله في بنيه من جيرة البيت، رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.. ليذكر المسلمين أن بعثة هذا الرسول فيهم، ووجودهم هم أنفسهم مسلمين، هو الاستجابة المباشرة الكاملة لدعوة أبيهم إبراهيم. وفي هذا ما فيه من إيحاء عميق بأن أمرهم ليس مستحدثاً إنما هو قديم وأنَّ قبلتهم ليست طارئة إنما هي قبلة أبيهم إبراهيم، وأن نعمة الله عليهم سابغة فهي نعمة الله التي وعدها خليله وعاهده عليها منذ ذلك التاريخ البعيد. إنَّ نعمة توجيهكم إلى قبلتكم، وتمييزكم

١. سورة المزمل: ١٥.
٢ البقرة ١٥١،١٥٢.

بشخصيتكم هي إحدى الآلاء المطردة فيكم، سبقتها نعمة إرسال رسول منكم: ﴿كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾. فهو التكريم والفضل أن تكون الرسالة فيكم، وأن يختار الرسول الأخير منكم...[1]

وأيضاً استعانوا بالآية الثانية والثالثة من سورة الجمعة، فهذا الشنقيطي يقول: لم يبين هنا مَن هذه الأمة التي أجاب الله بها دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل، ولم يبين هنا أيضاً هذا الرسول المسؤول بعثه فيهم من هو؟ ولكنه يبين في سورة الجمعة أنَّ تلك الأمة العرب، والرسول هو سيد الرسل محمدﷺ، وذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ * وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ...﴾.[2] لأنّ الأميين العرب بالإجماع، والرسول المذكور نبينا محمدﷺ إجماعاً، ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلّا نبينا محمدﷺ وحده. وثبت في الصحيح أنه هو الرسول الذي دعا به إبراهيم، ولا ينافي ذلك عموم رسالتهﷺ إلى الأسود والأحمر.

وعن ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾.

أقول: هم أهل مكة المكرمة، إذا ما أخذنا بأنَّهم المنسوبون إلى أُمِّ القرى وهي مكة كما في الآية الكريمة: ...﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.[3]

الشيخ الطبرسي: يعني بأمّ القرى مكة ومن حولها أهل الأرض كلهم عن ابن عباس، وهو من باب حذف المضاف يريد لتنذر أهل أمّ القرى، وإنما سميت مكة أمّ

١. البحر المحيط، أبوحيان؛ إعراب القرآن وبيانه، آلدرويش: الآية؛ جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت٣١٠هـ)؛ مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت٦٠٦هـ) الآية: ١٥١ البقرة؛ وأيضاً التحرير والتنوير لابن عاشور؛ في ظلال القرآن لسيد قطب، الآية: ١٥١البقرة.

٢. سورة الجمعة: ٢ـ٣.

٣. سورة الأنعام: ٩٢.

القـرى؛ لأنَّ الأرض دحيـت مـن تحتها، فكأن الأرض نشـأت منها. وقيـل: لأنَّ أول بيت وضـع في الدنيـا وضـع بمكـة، فـكأنَّ القرى تنشـأت منهـا عن السـدي. وقيـل: لأنَّ على جميـع النـاس أن يسـتقبلوها ويعظّموهـا؛ لأنهـا قبلتهم كما يجـب تعظيم الأمّ عـن الزجاج والجبائي.

القمّي: يعني: مكة وإنما سميت أمَّ القرى؛ لأنها أول بقعة خلقت.

والفيـض الكاشـاني: القمـيّ قـال: سـمّيت أمّ القـرى؛ لأنّهـا أوّل بقعة خلقهـا الله من الأرض وَمَـنْ حَوْلَهَا. أهـل الـشرّق والغـرب ...

أقـول: وإن تعـددت الأقـوال، لكنهـا تبقى مكة هـي أُمُّ القرى، فكانت النسـبة إليها ﴿ٱلأُمِّيّـِينَ﴾. كـما في الآيـة المذكـورة. و «الأُمِّـيَّ» كما في الآيـة: ﴿ٱلَّذِيـنَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُـولَ ٱلنَّـبِيَّ ٱلأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبـاً عِندَهُـمْ فِى ٱلتَّـوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيلِ﴾.[1]

وفي روايـة العيـاشي: عـن عـلي بـن أسـباط قـال: « قلـت لأبي جعفـرعليه السلام: لمَ سـمّي النبـيُّ صلى الله عليه وآله الأمّـي؟ قال: نسـب إلى مكـة، و ذلك من قـول الله: ﴿وَلِتُنـذِرَ أُمَّ ٱلْقُـرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَـا﴾. وأُمّ القـرى: مكـة»، فقيل: أُمّـيّ لذلك. هـذا إذا لم نأخذ بالمعنى الآخـر للأميِّينَ وهـم العـرب كلهـم، مَن كتب منهـم ومَن لم يكتـب؛ لأنهـم لم يكونوا أهل كتـاب، أو هم الذيـن لايكتبـون. وكذلـك كانـت قريـش. وللأُمّـي وهـو الـذي لا يقـرأ ولا يكتـب، أو الـذي يقـرأ ولايكتب...[2]

وفي الروايـات: بعـد هـذا نعـود للآيـة: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَـثْ فِيهِمْ رَسُـولاً مِّنْهُـمْ﴾. روائيًا،

---

١. سورة الأعراف: ١٥٧.

٢. أضـواء البيـان في تفسـير القـرآن، الشـنقيطي (ت١٣٩٣هــ)، الآيـة؛ مجمـع البيان للطبرسي؛ تفسـير القـرآن، علي بـن ابراهيم القمي (ت القرن٤هـ)؛ الصافي في تفسـير كلام الله الوافي، الفيض الكاشـاني (ت١٠٩٠هــ)، الآيـة؛ الجامـع لأحكام القـرآن، القرطبـي (ت٦٧١هــ)، الأعـراف: ١٥٧، الجمعة ٢ـ٣؛ وانظـر بعـض روايـات أهـل البيتعليهم السلام بهـذا الخصـوص «ٱلنَّبِيَّ ٱلأُمِّـيَّ» في البرهان في تفسـير القرآن، هاشـم الحسـيني البحـراني (ت١١٠٧هـ).

فقد جاءت عدّة روايات من الفريقين تتحدث عن الذرية والأُمّة التي بعث «فِيهِمْ .. مِّنْهُمْ» رسول الله صلى الله عليه وآله. فعن الإمام الصادق عليه السلام، وفي رواية العياشي عنه عليه السلام: «أراد بالأمة بني هاشم خاصة».

عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت له: أخبرني عن أُمّة محمد عليه الصلاة و السلام، مَن هم؟ قال: «أُمّة محمد بنو هاشم خاصة! قلت: فما الحجّة في أُمّة محمد أنهم أهل بيته، الذين ذكرت دون غيرهم؟ قال: قول الله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾». فلما أجاب الله إبراهيم وإسماعيل، وجعل من ذريتهم أمة مسلمة، و بعث فيها رسولاً منها ـ يعني من تلك الأُمة ـ يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ردف إبراهيم عليه السلام دعوته الأُولى بدعوته الأُخرى، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام؛ ليصح أمره فيهم، ولا يتبعوا غيرهم، فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[1]

ففي هذه دلالة على أنه لا تكون الأئمة والأُمة المسلمة، التي بَعث فيها محمداً صلى الله عليه و آله إلا من ذرية إبراهيم عليه السلام؛ لقوله:

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

علي بن إبراهيم، في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾. قال: يعني من ولد إسماعيل عليه السلام، فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام».

عن الصادق عليه السلام ورواه العياشي: «ولم يبعث من ذريتهما غير نبينا صلى الله عليه وآله».

---

١. سورة إبراهيم: ٣٥ـ٣٦.

وقـد أخـرج ابـن جرير وابـن أبي حاتـم عـن أبي العالية في قولـه: ﴿**ربنـا وابعث فيهم رسـولاً منهـم**﴾. يعنـي أمّة محمـد. فقيل له: قد اسـتجيب لك وهـو كائن في آخـر الزمان. وأخـرج ابـن جريـر وابن أبي حاتم عن السـدي في قولـه: ﴿**وابعث فيهم رسـولاً منهم** ﴾. قال: هـو محمدﷺ.

وأخـرج ابـن سـعد في طبقاتـه وابـن عسـاكر مـن طريـق جويـبر عـن الضحـاك: أنَّ النبـيَّ ﷺ قـال: «**أنـا دعـوة إبراهيم**». قـال وهو يرفـع القواعد مـن البيـت: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسـولاً منهـم**﴾. حتـى أتـمَّ الآية.[1]

هـذا فيـما تيسـّـر لنا مـن روايات، وتعالـوا معي لما ذكره المفسـرون عـن دعائهماعليهما السلام بـأن يكـون المبعوث «فيهـم .. ومنهم»، وهم يعرفـون أهله جيداً ومفاصل نشـأته في مكة، وكانـوا يصفونه بالصـادق الأمين...!

نقـف عند﴿**فِيهِـمْ**﴾: وبعـد أن نُشـير إلى أنَّ أبيَّ قرأهـا: وابعـث فيهـم في آخرهـم أو وابعـث في آخرهـم. نذكـر قولهـم: في هـذا الضمـيرِ، أي في الهـاء والميـم مـن ﴿**فيهـم**﴾. قـولان، بـل ثلاثـة أقـوال: أحدُهمـا: أنـه عائـدٌ على معنـى الأمّـة، إذ لو عـادَ عـلى لفظِها؛ لقـال: ﴿فيهـا﴾ قالـه أبـو البقاء. فيـما أبـو حيـان يعيـده على أمـة مسـلمة. الضمـير في قوله ﴿**وَٱبْعَـثْ فِيهِمْ**﴾. راجع إلى الأمة المسـلمة المذكورة سـابقاً. والثاني: أنه يعـودُ على الذريةِ. قالـه مقاتل والفراء. واحتمله الشـوكاني في تفسـيره. وقيل: يعودُ على أهـل مكة، ويؤيده: ﴿**ٱلَّذِى بَعَـثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُـولاً مِنهُـم**﴾. وبعد أن يذكر أبو حيـان تلك الاحتمالات عن عـودة الضمـير في فِيهِـمْ...، يقـول: ولا خلاف أنـه رسـول اللهﷺ، وصحَّ عنـه أنه قال: «**أنـا دعـوة أبي إبراهيـم**». ولم يبعـث الله إلى مكـة وما حولهـا إلّا هوﷺ. وقـرأ أبيّ: وابعث فيهـم في آخرهـم. ثـمَّ يختـم كلامه هـذا بقول ابـن عبـاس: كلّ الأنبيـاء من بنـي إسرائيل

---

١. الصافي في تفسـير كلام الله الوافي، الفيض الكاشـاني (ت١٠٩٠هـ)؛ البرهان في تفسـير القرآن، هاشـم الحسيني البحراني (ت١١٠٧هـ)؛ الدر المنثور في التفسـير بالمأثور، السـيوطي (ت٩١١هـ) : الآية.

إلّا عشرة: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ومحمد صلى الله عليه وآله...

ابن الجوزي: قوله تعالى ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم**﴾. في الهاء والميم من ﴿**فيهم**﴾. قولان، أحدهما: أنها تعود على الذرية، قاله مقاتل والفراء. والثاني: على أهل مكة في قوله: ﴿**وارزق أهله**﴾. والمراد بالرسول: محمد صلى الله عليه وآله.

وقد روى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قيل: يا رسول الله ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمّي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

ابن عاشور: وإنما قال ﴿**فيهم**﴾. ولم يقل لهم؛ لتكون الدعوة بمجيء رسول برسالة عامة، فلا يكون ذلك الرسول رسولاً إليهم فقط، ولذلك حذف متعلق ﴿**رسولاً**﴾ ليعم، فالنداء في قوله: ﴿**ربنا وابعث**﴾، اعتراض بين جمل الدعوات المتعاطفة، ومظهر هذه الدعوة هو محمد صلى الله عليه وآله، فإنه الرسول الذي هو من ذرية إبراهيم وإسماعيل كليهما، وأما غيره من رسل غير العرب، فليسوا من ذرية إسماعيل، وشعيب من ذرية إبراهيم وليس من ذرية إسماعيل، وهود وصالح هما من العرب العاربة، فليسا من ذرية إبراهيم ولا من ذرية إسماعيل...[1]

وأما عن ﴿**مِنْهُمْ**﴾. فالزمخشري هو الآخر الذي يذهب إلى أنَّ ﴿**فيهم**﴾. في الأُمّة المسلمة، ويذهب إلى أنَّ ﴿**رسولاً منهم**﴾ من أنفسهم. وروي أنه قيل له: قد استجيب لك وهو في آخر الزمان، فبعث الله فيهم محمداً صلى الله عليه وآله. قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى ورؤيا أمي**».

---

١. انظر التفاسير، منها: تفسير البحر المحيط، ابو حيان (ت٧٥٤هـ)؛ تفسير فتح القدير، الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)؛ زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)؛ التحرير والتنوير، ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ): الآية.

وأما الشيخ الطوسي، فبعد أن يُشير إلى أنَّ الضمير في قوله: ﴿**فيهم**﴾.راجع إلى الأُمّة المسلمة، التي سأل الله إبراهيم من ذريته. يقول: المعنى بقوله ﴿**رسولاً منهم**﴾.هو النبيّ صلى الله عليه وآله؛ لما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: «**انا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى** عليه السلام». يعني قوله: ﴿**ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد**﴾.[1] وهو قول الحسن وقتادة والسدي وغيرهم من اهل العلم. ويدل على ذلك أيضاً، وأنَّ المراد به نبينا صلى الله عليه وآله دون الأنبياء، الذين بعثهم الله من بني اسرائيل، أنه دعى بذلك لذريته، الذين يكونون بمكة وما حولها على ما تضمنته الآية.

وفي قوله: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم**﴾. **يقول الشيخ**: ولم يبعث الله من هذه صورته إلّا محمداً صلى الله عليه وآله.

أما الرازي فيتناول «فيهم .. منهم»، ويقول في الآية: ﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾. وهذا الدعاء يفيد كمال حال ذريته من وجهين: أحدهما: أن يكون فيهم رسول يكمل لهم الدين والشرع، ويدعوهم إلى ما يثبتون به على الإسلام. والثاني: أن يكون ذلك المبعوث منهم لا من غيرهم لوجوه: أحدها: ليكون محلهم ورتبتهم في العزّ والدين أعظم؛ لأنَّ الرسول والمرسل إليه إذا كانا معاً من ذريته، كان أشرف لطلبته إذا أجيب إليها. وثانيها: أنه إذا كان منهم، فإنهم يعرفون مولده ومنشأه، فيقرب الأمر عليهم في معرفة صدقه وأمانته. وثالثها: أنه إذا كان منهم، كان أحرص الناس على خيرهم، وأشفق عليهم من الأجنبي لو أرسل إليهم. إذا ثبت هذا فنقول ـ والكلام ما زال للرازي ـ: إذا كان مراد إبراهيم عليه السلام عمارة الدين في الحال وفي المستقبل، وكان قد غلب على ظنّه أنَّ ذلك إنما يتمُّ ويكمل بأن يكون القوم من ذريته، حسن منه أن يريد ذلك؛ ليجتمع له بذلك نهاية المراد في الدين، وينضاف إليه السرور العظيم بأن يكون هذا الأمر في ذريته؛ لأن لا عزَّ ولا شرف أعلى من هذه الرتبة.

---

١. سورة الصف: ٦.

وقبل أن نغادر كلام الرازي، لا بدَّ لنا من ذكر ما دوّنه من أدلة على أنَّ ﴿**رسولاً**﴾. المقصود به محمد بن عبد الله ﷺ حيث يقول: وأما أنَّ الرسول هو محمد ﷺ، فيدل عليه وجوه: أحدها: إجماع المفسرين وهو حجّة. وثانيها: ما روي عنه ﷺ أنه قال: «**أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى**». وأراد بالدعوة هذه الآية، وبشارة عيسى عليه السلام ما ذكر في سورة الصف من قوله: ﴿**مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾.[1] وثالثها: أنَّ إبراهيم عليه السلام إنما دعا بهذا الدعاء بمكة لذريته، الذين يكونون بها وبما حولها، ولم يبعث الله تعالى إلى مَن بمكة وما حولها إلّا محمداً ﷺ.

أبوحيان: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم**﴾، لما دعا ربَّه بالأمن لمكة، وبالرزق لأهلها، وبأن يجعل من ذريته أمّة مسلمة، ختم الدعاء لهم بما فيه سعادتهم دنيا وآخرة، وهو بعثة محمد ﷺ فيهم، فشمل دعاؤه لهم الأمن والخصب والهداية... ﴿**ثم بعثناكم**﴾، والمراد هنا: الإرسال إليهم.[2]

حكمٌ عديدةٌ! وأما عن الحكمة في أن يكون الرسول منهم: يقول أبوحيان: فهم يعرفون وجهه ونسبه ونشأته، كما قال: ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم**﴾. ودعا بأن يبعث الرسول «فيهم .. منهم»؛ لأنه يكون أشفق على قومه، ويكونون هم أعزّ به وأشرف وأقرب للإجابة؛ لأنهم يعرفون منشأه وصدقه وأمانته. قال الربيع: لما دعا إبراهيم قيل له: قد استجيب لك، وهو في آخر الزمان.

وشبيه بهذا ما قاله البقاعي: ليكون أرفق بهم وأشفق عليهم، ويكونوا هم أجدر باتباعه والترامي في نصره، وذلك الرسول هو محمد ﷺ، فإنه لم يبعث من ذريتهما بالكتاب غيره، فهو دعوة إبراهيم عليه السلام أبي العرب وأكرم ذريته؛ ففي ذلك أعظم ذمّ لهم

---

١. سورة الصف: ٦.

٢. الكشاف للزمخشري؛ التبيان للشيخ الطوسي؛ مفاتيح الغيب، التفسير الكبير للرازي؛ البحر المحيط، أبوحيان.

بعداوته مع كونه مرسلاً لتطهيرهم بالكتاب الذي هو الهدى لا ريب فيه،...

الآلوسي: وبعد أن يذكر أنَّ ﴿فِيهِمْ﴾. أي أرسل في الأمة المسلمة ـ وقيل: في ـ الذرية ـ وعود الضمير إلى أهل مكة بعيد، يقول عن ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾. .. أي من أنفسهم. ويتابع كلامه قائلاً: ووصفه بذلك ليكون أشفق عليهم، ويكونوا أعزّ به وأشرف، وأقرب للإجابة، لأنهم يعرفون منشأه وصدقه وأمانته، ولم يبعث من ذرية كليهما سوى محمد صلى الله عليه وآله، وجميع أنبياء بني إسرائيل من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ لا من ذريتهما ـ فهو المجاب به دعوتهما، كما روى الإمام أحمد وشارح السنة عن العرباض عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**سأخبركم بأول أمري، أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمّي التي رأت حين وضعتني**»، وأراد صلى الله عليه وآله إثر دعوته، أو مدعوه، أو عين دعوته ـ على المبالغة ـ ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾، من أنفسهم، أي بضعة منهم كما يذهب سيد قطب في تفسيره للآية ١٢٨ من سورة التوبة، وهي الآية التي تتحدث عن الصلة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وقومه: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾. حين يقول: ولم يقل: لقد جاءكم رسول منكم، ولكن قال: ﴿**من أنفسكم**﴾، وهي أشدُّ حساسية وأعمق صلةً، وأدّل على نوع الوشيجة التي تربطهم به، فهو بضعة من أنفسهم، تتصل بهم صلة النفس بالنفس، وهي أعمق وأحسن. وكذا؛ بعد أن يذكر في تفسيره للآية ١٦٤ من سورة آل عمران: ﴿**لقد مَنّ الله عَلى المؤمِنين إذ بَعثَ فيهم رَسولاً من أنفسهِم يتلوا عَليهم آياتهِ وَيزكيهم ويعلّمُهُم الكتابَ والحكمةَ وإن كانُوا مِن قَبل لَفى ضَلالٍ مُبين**﴾. ـ وكما ذكرنا جزءًا قليلاً منه أعلاه ـ ... إنها المنة العظمى أن يبعث الله فيهم رسولاً، وأن يكون هذا الرسول ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.. إنَّ العناية من الله الجليل، بإرسال رسول من عنده إلى بعض خلقه، هي المنة التي لا تنبثق إلّا من فيض الكرم الإلهي. المنة الخالصة التي لا يقابلها شيء من جانب البشر. وإلّا فمن هم هؤلاء الناس، ومن هم

هـؤلاء الخلـق، حتـى يذكرهـم الله هذا الذكـر، ويعنى بهم هـذه العناية، ويبلـغ من حفاوة الله بهـم، أن يرسـل لهـم رسـولاً مـن عنـده، يحدثهـم بآياتـه ـ سـبحانه ـ وكلماته، لـولا أن كـرم الله يفيـض بـلا حسـاب، ويغمر خلائقه بلا سـبب منهـم ولا مقابل؟ فبعـد أن يذكر كلامـه هـذا ويدوّنـه في تفسـيره للآيـة، يقـول: وتتضاعـف المنة بأن يكـون هذا الرسـول «مِـنْ أَنْفُسِـهِمْ».. لم يقـل «منهم» فـإنَّ للتعبير القرآني «مِنْ أَنْفُسِـهِمْ» ظـلالاً عميقة الإيحاء والدلالـة.. إنَّ الصلـة بـين المؤمنـين والرسـول هي صلـة النفـس بالنفس، لا صلـة الفرد بالجنـس، فليسـت المسـألة أنـه واحـد منهـم وكفـى. إنـما هـي أعمـق مـن ذلـك وأرقى. ويواصـل كلامـه قائلاً: ثمَّ إنهـم بالإيمان يرتفعـون إلى هذه الصلة بالرسـول، ويصلون إلى هـذا الأفـق من الكرامة عـلى الله. فهو منة عـلى المؤمنين.. فالمنـة مضاعفة، ممثلة في إرسـال الرسـول، وفي وصل أنفسـهم بنفس الرسـول، ونفس الرسـول بأنفسـهم على هـذا النحو الحبيب ...[1]

الاسـتجابة: لقد تمّت الاسـتجابة لدعائهما، أن بعث الله تعالى رسـولاً مـن ذريتهما بعد قـرون وقـرون في ذلـك الـوادي، الـذي انبثقت منـه أدعيـة نبـيّ الله إبراهيم وابنـه نبيّ الله إسـماعيل عليهما السلام، وكأن السـماء أبـت إلّا أن تكـون اسـتجابة الدعـاء مـن حيـث انطلق، من بقعـة مباركة شُـيّد فيها بيـت الله الحرام، الذي شرف بأن نسـبه الله تعـالى إليه ﴿بَيْتِيَ﴾. حين عهـد إلى كلٍّ من إبراهيم وإسـماعيل تطهـيره: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.[2] ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.[3] فزادته هذه

١. البحـر المحيط، أبوحيان؛ نظم الدرر في تناسـب الآيات والسـور، البقاعي (ت٨٨٥هـ)؛ روح المعاني للآلـوسي: الآيـة ١٦٤ من سـورة آل عمـران؛ في ظلال القرآن، سـيد قطـب: الآيـة ١٢٨ التوبة والآية ١٦٤ آل عمران.

٢. سورة البقرة: ١٢٥.

٣. سورة الحج: ٢٦.

النسبة العظيمة طهارةً وبركةً وتشريفاً! ولعل إضافة البيت إلى نفسه فيه إشارة واضحة أنَّ العبادة فيه لا تصحّ لغيره تعالى.

لينبههم بإضافة البيت إلى نفسه: إنّه لا يليق أن يعبد فيه غيره، كما جاء في تفسير المنار. **أبوحيان:** ﴿**بَيْتِيَ**﴾ هذه إضافة تشريف، لا أنَّ مكاناً محل لله تعالى، ولكن لما أمر ببنائه وتطهيره وإيفاد الناس من كلّ فجٍّ إليه، صار له بذلك اختصاص، فحسنت إضافته إلى الله بذلك، وصار نظير قوله: ﴿**ناقة الله**﴾.[1] ﴿**روح الله**﴾.[2] من حيث أنَّ في كلّ منهما خصوصية لا توجد في غيره، فناسب الإضافة إليه تعالى.[3]

أقول: وقد غدا هذا البيت المبارك، الذي نسبه الله تعالى إليه مثابةً وأمناً! وهو ما كان يهدف إليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلقد ظلَّ إبراهيم عليه السلام يدعو لهم ولأجيالهم بالرزق وبالأمن ...، وإن اختلفت عصورهم وتناءت بلدانهم وديارهم، وإن اختلفت قومياتهم وقبائلهم وألوانهم، وتعدّدت لغاتهم وثقافاتهم وأعرافهم،.. وإن لاذوا هنا ولجأوا هناك.. تبقى مكة المكرمة هي الأصل؛ ويبقى البيت الحرام مثابةً لجميع الناس ﴿**سواء العاكف فيه والباد**﴾، لا يختصُّ به واحد دون الآخر، ولا تختصُّ به فئة دون أخرى، ولا بلد دون بلد، فلقد صيّرته السماء مثابةً لهم وأمناً بقولها: ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً**﴾.[4] .. وفي قراءة الأعمش وطلحة: مثابات على الجمع.

المثابة: مفعلة، من ثاب القوم إلى الموضع، إذا رجعوا إليه. وفي قول: إنَّ الهاء في مثابة للمبالغة؛ لكثرة من يثوب إليه منهم... فهم يثوبون إليه مثاباً ومثابةً..

قال ابن عباس: معاذاً وملجأ. وقال قتادة والخليل: مجمعاً .. ومثابةً، قال مجاهد

١. سورة الأعراف: ٧٣.

٢. سورة يوسف: ٨٧.

٣. تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ)؛ البحر المحيط، أبوحيان: الآية.

٤. سورة البقرة: ١٢٥.

وابـن جبـير: يثوبـون إليـه مـن كلّ جانـب، أي يحجّونـه في كلّ عـام، فهـم يتفرّقـون، ثـم يثوبـون إليـه أعيانهـم أو أمثالهـم، ولا يقـضي أحـد منهم وطـراً، وقال الشـاعر:

جعـل البيـت مثابـاً لهـم ... ليـس منه الدهـر يقضون الوطر.

وقال ورقة بن نوفل:

مثابـاً لا فنـاء القبائـل كلهـا ... تحـب إليها اليعمـلات الطلائح.

وقال بعضهم:

كلّ الأماكـن إعظامـاً لحرمتهـا ... تسعى لها ولها في سعيها شرف.[1]

فمـن تلـك البقعـة المباركـة، ومـن ذلـك الـوادي عنـد بيـت الله المحـرم، ومـن تلـك الذريـة الطيبـة المهتدية نفسـها، التي تنتمي لإسـماعيل فإبراهيم عليهما السلام، بُعث رسـول الله ﷺ وانطلـق نبيًّـا مبـاركاً! بعـد أن اسـتجابت السـماء للدعوة الخاصـة: ﴿**رَبَّنَـا وَٱبْعَـثْ فِيهِمْ رَسُـولاً مِّنْهُـمْ**...﴾. وإن تأخّـرت الاسـتجابة للدعـاء، وإن بعـدت زمنـاً طويـلاً عن عهد إبراهيـم وإسـماعيل عليهما السلام. وقـد كثـرت الأمـم، ونـأت بقاعهـا، واتسـعت رقعـة وجودها وسـكناها، .. إلّا أنَّهـا وقعـت في الأجيـال القادمـة.. ولكـن أصلهـا ثابـت ..، أيـن؟! في ذلـك الوادي، الـذي وصفته الآيـة: ﴿**عِندَ بَيْتِكَ ٱلْـمُحَرَّمِ**﴾. في ﴿**أُمّ ٱلْقُـرَىٰ**﴾. انطلقت البعثـة المحمديّـة المباركـة، وبهـا ومنها أشرقـت الهدايـة وحلقـت ظلالها؛ لتكـون للناس كافـةً و للعالمـين رحمـةً!! وكانت الاسـتجابة بعـد آلاف من السـنين. هي في عـرف الناس أمـد طويـل، وهـي عنـد الله أجـل معلوم، تقتـضي حكمتـه أن تتحقـق الدعوة المسـتجابة فيـه! إنَّ الدعوة المسـتجابة تسـتجاب، ولكنها تتحقـق في أوانها الذي يقـدره الله بحكمته. غـير أنَّ النـاس يسـتعجلون! وغـير الواصلـين يملـون ويقنطـون! وكانـت الاسـتجابة لدعوة إبراهيـم وإسـماعيل هي بعثـة هـذا الرسـول الكريـم بعـد قـرون وقـرون. بعثـة رسـول مـن ذرية إبراهيم وإسـماعيل، يتلـو عليهم آيـات الله، ويعلّمهم الكتـاب والحكمة

١. تفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ) : الآية، بتصرف وتلخيص.

ويطهّرهم من الأرجاس والأدناس.

وبالتالي فهم أمّة محمد صلوات الله وسلامه عليه على الخصوص، الذين هم في ﴿أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. وهي مكة. فهم جميعاً ـ ولعلّه بدليل سياق الآيات ٢٧، ١٢٦ سورة البقرة وبغيرها من آيات تتحدث عن هذا الوادي وما يتعلق ببيت الله الحرام فيه ـ ومَن كان قبلهم أهل الحرم، وهم المقصودون الذين شملهم دعاء إبراهيم بالرزق، ولكن هم في دائرة التخصيص أو التقييد، التي ذكرناها، والتي يمكن استفادتها من الآية: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾. فهؤلاء ـ والله العالم ـ هم الذرية الصالحة والأُمّة المسلمة؛ المؤمنة بالله سبحانه وتعالى وباليوم الآخر.

وهذه الذرية الصالحة والأُمّة المسلمة، هي التي شملها الدعاء الخاص لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبعث الله عزَّ وجلَّ فيها ومنها رسولاً...

سيد قطب: فاستجاب الله لهما، وأرسل من أهل البيت محمد بن عبد الله، وحقّق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله...! وليس هذا فحسب، بل... ﴿**بعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم**﴾... وبالتالي.. قد استجاب الله له، وحقق دعوته، وجعل له لسان صدق في الآخرين...!

فلنقف قليلاً عند دعائه عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلآخِرِينَ﴾.[1]

لعلّها تُعدُّ واحدةً من نتائج استجابة الدعاء، فإنَّ الذي يبدو لكلّ من يتدبر في دعاء إبراهيم عليه السلام أنَّه ما انفكَّ يتمنّى أن يبقى ذكره موجوداً في كلِّ ما تريده السماء وترتضيه، وأن يخلد ذكره في دائرة الامتداد الديني والروحي والعقدي، بل وحتى النسبي إن طهر ولم يك ظالماً..، وشريطة أن لا تخرج تلك الذرية وهذه الأمة عن دائرة الإيمان والتوحيد، وأن تبقى مواظبةً في خدمة ما تريده السماء وترضاه؛ حبَّاً منه لهذه الدائرة الممتدّة بإذن الله تعالى برموزها وكتبها وشرائعها في خلقه.. وحرصاً

١. سورة الشعراء: ٨٤.

منـه أن يبقـى حيًّـا بينهـم، ذا ثنـاءٍ حسـن، وذكـرٍ جميـل، ومحـل قبول دائـم بينهـم بقبول مشـاريعه وديمومتهـا، التـي أوحت لـه بها السـماء، ومنها فريضـة الحجّ والعمـرة أحكاماً ومواقيـت، وعـمارة البيـت الحـرام ومعالمه..، وبالتـالي فإنَّ اسـتحباب اكتسـاب ما يورث الذكـر الجميـل في دائـرة التوحيـد والتشريع والمواقـف النبيلة؛ يُعـدُّ حياةً ثانيـةً حتى قيل: قـد مـات قومٌ وهـم في النـاس أحياء! أحيـاء بمواقفهـم وحركاتهـم الطيبة، ومشـاريعهم النافعـة، وفضائلهـم الجليلة..!

وللشافعي:

قد مـات قـوم ومـا ماتـت فضائلهم وعـاش قوم وهـم في النـاس أموات

وأن يبقـى وكأنـه مواظبٌ ومشـاركٌ معهم فيما يريده الله سـبحانه وتعـالى من شرائع عبر رسـله وأنبيائه وكتبـه والصالحين من عبـاده. وأن يذكروه ذكراً طيبـاً بحقّ وبصدق؛ فلعلهـم بهـذا لا ينسـون كونـه قـدوةً مباركةً، ومواقفـه تبقى ذكـرى خالدة، ومشـاريعه التـي هي مشـاريع السـماء تبقى مواضـع عبادة، وشرايعـه يلتزم بها في فرض ومسـتحب ودعاء!

ولهـذا نراه عليه السـلام يدعو ـ والكلام لسـيد قطـب ـ: دعوة تدفعـه إليها الرغبة في الامتـداد، لا بالنسـب ولكـن بالعقيـدة؛ فهو يطلب إلى ربّـه أن يجعل له فيمـن يأتون أخيراً لسـان صدق يدعوهـم إلى الحقّ، ويردهم إلى الحنيفية السـمحاء ديـن إبراهيم. ولعلها هي دعوتـه في موضـع آخـر. إذ يرفع قواعد البيـت الحرام هو وابنه إسـماعيل ثم يقـول: ﴿**ربنا واجعلنـا مسـلمين لـك ومـن ذريتنا أمة مسـلمة لـك وأرنا مناسـكنا وتـب علينا إنـك أنـت التـواب الرحيـم * ربنـا وابعـث فيهم رسـولاً منهم يتلـوا عليهـم آياتك ويعلّمهـم الكتـاب والحكمـة ويزكيهم إنـك أنت العزيـز الحكيم**﴾. فيتضـرّع إلى الله تعـالى قائـلاً: ﴿**وَٱجۡعَل لِّي لِسَـانَ صِـدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ**﴾.[1]

١. سورة الشعراء: ٨٤.

الطبرسي: أي ثناءً حسناً في آخر الأمم، وذكراً جميلاً وقبولاً عاماً في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة! فأجاب الله سبحانه دعاه، فكلّ أهل الأديان يثنون عليه ويقرُّون بنبوته.. وقيل: إنَّ معناه واجعل لي ولد صدق في آخر الأمم يدعو إلى الله ويقوم بالحقّ وهو محمدﷺ!

والرازي وهو يذكر تأويلات دعاء إبراهيمعليه السلام: التأويل الثاني: أنه سأل ربَّه أن يجعل من ذريته في آخر الزمان من يكون داعياً إلى الله تعالى، وذلك هو محمدﷺ، فالمراد من قوله: ﴿**وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ**﴾. بعثة محمدﷺ. التأويل الثالث: قال بعضهم المراد اتفاق أهل الأديان على حبّه، ثم إنَّ الله تعالى أعطاه ذلك؛ لأنك لا ترى أهل دين إلّا ويتوالون إبراهيمعليه السلام... الرازي أيضاً: سؤال وهو أنه يقال: ما الحكمة في ذكر إبراهيمعليه السلام مع محمدﷺ في باب الصلاة حيث يقال: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؟ وأجابوا عنه من وجوه: أولها: أنَّ إبراهيمعليه السلام دعا لمحمدﷺ حيث قال: ﴿**رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ آيَاتِكَ**﴾. فلما وجب للخليل على الحبيب حقّ دعائه له، قضى الله تعالى عنه حقَّه بأن أجرى ذكره على ألسنة أمته إلى يوم القيامة. وثانيها: أنَّ إبراهيمعليه السلام سأل ذلك ربَّه بقوله: ﴿**وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ**﴾.[1] يعني ابق لي ثناءً حسناً في أمة محمدﷺ، فأجابه الله تعالى إليه وقرن ذكره بذكر حبيبه إبقاءً للثناء الحسن عليه في أمته. وثالثها: أنَّ إبراهيم كان أب الملة لقوله: ﴿**مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ**﴾.[2] ومحمد كان أب الرحمة، وفي قراءة ابن مسعود: النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم.

وقال في قصته: ﴿**بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ**﴾. «**إنما أنا لكم مثل الوالد**» وقال عليه السلام: يعني في الرأفة والرحمة، فلما وجب لكلّ واحد منهم حقّ الأبوة من وجه،

١. سورة الشعراء: ٨٤.

٢. سورة الحج: ٧٨.

قـرب بـين ذكرهما في بـاب الثناء والصـلاة. ورابعهـا: أنّ إبراهيمعليه السلام كان منـادي الشريعة في الحـجّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّـاسِ بِالْـحَجِّ﴾.[1] وكان محمـدصلى الله عليه وآله منادي الدين: ﴿سَـمِعْنَا مُنَادِياً يُنَـادِي لِلإِيمَـانِ﴾. فجمع الله تعـالى بينهما في الذكـر الجميل!

البيضـاوي: ﴿وَٱجْعَـل لِّي لِسَـانَ صِـدْقٍ فِي ٱلآخِرِينَ﴾. جاهـاً وحسـن صيـت في الدنيـا يبقـى أثـره إلى يـوم الديـن، ولذلك مـا من أمـة إلّا وهم محبـون له مثنـون عليه، أو صادقـاً مـن ذريتـي يجدد أصـل ديني ويدعـو الناس إلى مـا كنت أدعوهـم إليه وهو محمد صلى الله عليه وآله.

الآلـوسي: ويحتمـل أن يـراد بالآخريـن آخـر أمة يبعـث فيها نبـيٌّ، وأنه عليه السـلام طلـب الصيـت الحسـن والذكـر الجميل فيهـم ببعثة نبـيّ فيهم يجـدد أصل دينـه، ويدعو النـاس إلى مـا كان يدعوهـم إليـه مـن التوحيد معلماً لهـم أنّ ذلـك ملة إبراهيـمعليه السلام فكأنه طلـب بعثـة نبـيّ كذلـك في آخـر الزمان لا تنسـخ شريعتـه إلى يـوم القيامـة، وليس ذلك إلّا نبينـا محمـدصلى الله عليه وآله، وقـد طلبا بعثتـه عليهما الصلاة والسـلام بـما هو أصرح ممـا ذكر أعني قولـه: ﴿وَٱبْعَـثْ فِيهِـمْ رَسُـولاً مِّنْهُـمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِـمْ آيَاتِـكَ﴾ . ولذا قـالصلى الله عليه وآله: «**أنا دعوة إبراهيـم عليه السـلام!**».

فاسـتجاب الله عـزَّ وجـلَّ دعـوة إبراهيـم هـذه، فبَعـث رسـول الله صلـوات الله عليه وآلـه؛ ليواصـل مسـيرتهما؛ مسـيرة إبراهيـم وإسـماعيلعليهما السلام في الأمّـة المسـلمة، ويأخذ بها لمـا فيه هدايتهـا وصلاحها، باتباع ملّتهـما، المنسـوبة لإبراهيمعليه السلام، والمعبّر عنهـا في التنزيل العزيـز: ..﴿ دِينـاً قِيَماً مِّلَّـةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفـاً ... ﴾. وبـين أيدينا الآيات القرآنيّـة العديدة، التـي تتحـدّث عـن ملّـة إبراهيـم والحنيفيّـة، وتأمـر باتباعهـا، وقـد تمثّلت بآيـات نكتفي منهـا بالآيـة، التـي تحمل أمـراً إلهيًّا للمبعـوث رسـولاً في وادي مكـة، وفي تلـك الذرية، وفي تلـك الأمّة المسـلمة الآتيـة بعدهماعليهما السلام بزمنٍ طويـل جدًّا، ﴿قُـلْ إِنَّنِي هَـدَانِي رَبِّي إِلَىٰ

---

1. سورة الحجّ: ٢٧ .

﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[1] وبالآية التي تُبيّن أن لا أحد أحسن اعتقاداً ولا أصوب طريقاً ولا أهدى سبيلاً: ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَٱتَّخَذَ ٱللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾.

أقول: وكان جميع هذا بركةً كلّه وعطاءً كلّه؛ ليس هناك أعظم منه أبداً، لأُمّة يُريدا لها أن تكون مستخلفة على دعوتهما عليهما السلام في الأرض، متميّزةً بمناقب خاصة ومنهج هداية ربانيٍّ في الحياة كما وصفته الآيات المذكورة وأمثالها، منتظرةً قبوله تعالى ورضاه، وأجره في الآخرة![2]

***

١. سورة الأنعام: ١٦١.

٢. في ظلال القرآن لسيد قطب؛ مجمع البيان للطبرسي، الآية: ٨٤ الشعراء؛ مفاتيح الغيب للرازي، الشعراء: ٨٤، والبقرة: ١٢٩؛ تفسير انوار التنزيل واسرار التأويل، البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ)؛ تفسير روح المعاني، الآلوسي (ت ١٢٧٠ هـ)، الشعراء: ٨٤.